مجلة الدراسات اللغوية والأدبية
SUST Journal of Linguistic and Literay Studies
Available at:
http://scientific-journal.sustech.edu/

آراء البلاغيين في أسلوب القصر – دراسة تحليلية

فضل الله النور على ماهل – أشرف الصديق الخليل عبدالله– جامعة السودان للعلوم والكنولوجيا

المستخلص:

هدفت الدراسة إلى معرفة آراء البلاغيين في الاستثناء، عن طريق أسلوب القصر الذي يتمثل في تقرير المعنى في ذهن المتلقي بعد حصره وتحديده، قد اتبع البحث المنهج الوصفي في دراسة هذه الآراء، وأسلوب القصر سبيل من سبل إيجاز العبارة و أدائها للمعنى الكثير باللفظ القليل، كما تناولت الدراسة تأكيد المدح بما يشبه الذم، وتأكيد الذم بما يشبه المدح، هو بناء حكم معنوي موهم بخلاف المقصود ثم الاستثناء منه، وقد توصلت الدراسة إلى نتائج أهمها:

1– أنّ أسلوب الاستثناء أقوى الطرق في أسلوب القصر كما يقع أسلوب الاستثناء في علم البديع عن طريق المدح بما يشبه الذم وعكسه.

الكلمات المفتاحية :الأسلوب –القصر –التخصيص – الأغراض– المدح – الذم

Abstract

The study aimed to find out the rhetoric's opinions on the exception, through the method of minors, which is represented in determining the meaning in the mind of the recipient after confining and defining it. The study deals with affirmation of praise in a manner similar to slander, and affirmation of defamation in a manner similar to praise, is the construction of an illusory moral judgment other than the intended purpose, then exclusion from it.

1- The method of exception is the strongest way in the method of minors, just as the method of exception is found in the science of badi 'by praising something like slandering and reversing it.

key words: Method -shortening - assignment - purposes - praise - disparagement

المقدمة:

البلاغة فن للقول الجيد الذي يسبي العقول بقوة أسلوبه، كما تعني مجموعة من الخصائص التي تتوفر في هذا القول الجميل المؤثر. وتناول البلاغيون أسلوب الاستثناء في بابين من أبوابها أولها أسلوب القصر في علم المعاني، ورأس هذا الباب النفي والاستثناء، والآخر تأكد المدح بما يشبه الذم وتأكيد الذم بما يشبه المدح، والمهم في التأليف البلاغي، الاقتراب من النصوص وتذوقها وإحساس نبضها ورصد ما تشعه من انفعالات ومشاعر في قلب المتلقي، وأعظم أهداف الدرس البلاغي، الارتقاء بالحس الفني والذوق الأدبي. والاستثناء أحد الأساليب المستعملة بكثرة في اللغة العربية. وهو ضرب من توكيد الكلام، ويؤتى به لتقوية المعنى في ذهن السامع وإعطائه وقعاً حسناً في عملية التخاطب والتواصل.

القصر من الاستثناء الموجب:

ذكر البلاغيون الاستثناء التام المثبت وهو عندهم قيد مصحح للحكم لا غير ويفيد القصر، أي الإثبات والنفي؛ ولكنه ليس من طرقه.

وذكر ذلك صاحب علوم البلاغة (شادي) حيث قال: يرى جمهور علماء البلاغة أنّ وجود النفي مع الاستثناء ضرورة لإفادة معنى القصر، وعلى ذلك فالاستثناء من الموجب لا يفيد القصر ولكنه مجرد قيد مصحح للحكم قبله كقولنا: قام القوم إلا محمداً، وقول امرئ القيس:

فجئتُ وقَدْ نضّتْ لِـ نومٍ ثيابها لدى السّترِ إلا لِبْسَةَ المُتفضّل

(شادي، 1422هـ – 2011م.ص157.)

وجاء في مواهب الفتاح: الاستثناء من الإثبات كقولك: جاء القوم إلا زيداً لا يفيد القصر لأن الغرض منه الإثبات والاستثناء قيد مصحح له فكأنك قلت جاء القوم المغايرون لزيد ولو كان الاستثناء المذكور من طرق القصر لكان من طرقه الصفة أيضاً نحو جاء الناس الصالحون بخلاف ما تقدم فيه النفي ثم أتى فيه بالاستثناء سواء ذكر المستثنى منه أم لا نحو ما جاءني إلا زيد فإن الغرض منه النفي ثم الإثبات المحققان للقصر وليس الغرض منه تحصيل الحكم فقط وإلا لقيل جاءني زيد والمحكم في ذلك الاستعمال والذوق السليم ولذلك يستعمل النفي ثم الاستثناء عند الإنكار دون الإثبات ثم الاستثناء. المغربي، (1427هـ، 191/2).

ووقع الخلاف في التام المنفي وذكر ذلك صاحب علم المعاني حيث قال: "لا خلاف بين البلاغيين في أنّ الاستثناء التام المنفي في قولك: ما جاءني أحدٌ إلا زيداً وما أكرمت أحداً إلا عمراً.

وقول المتنبي:

كأنْ لَمْ يُمِتْ حيٌّ سِوَاكَ ولَمْ يَقُمْ عَلى أحدٍ إلا عَلَيْكَ النّوائحُ

لا خلاف بينهم في أنه يفيد القصر، ولكن الخلاف في جعله من طرق القصر الاصطلاحية، فبعضهم يرى أنّه ليس قصراً اصطلاحياً بل هو قيد يصحح الحكم المنفي، فإذا قلت: ما جاءني أحد إلا زيد، كان استثناء زيد قيداً مصححاً للحكم، لأن قولك: ما جاءني أحدٌ، حصل به الحكم المنفي، لكن لما كان هذا الحكم شاملاً لزيد وهو لم يأت، قيّد المجيء بغير زيد ليصح الحكم المنفي، وحجتهم أنّ ما قبل الأداة كلام تام يحسن السكوت عليه، فمناط الفائدة وهو الحكم قد حصل قبل الأداة، وعندئذٍ يكون ما بعدها كأنّه قيد مصحح. ويرى آخرون أنّه قصر اصطلاحي كالاستثناء المفرغ، ولكنّه جاء على خلاف الأصل، حيث صرح فيه بالمثبت له والمنفي عنه معاً، والجمهور على أنّ الأصل في طريق الاستثناء النفي والاستثناء النص على المثبت له فقط. أما الاستثناء التام الموجب كقولك: جاء القوم إلا زيداً، وأكرمت الطلاب إلا المهمل، فالصواب أنه ليس قصراً، بل هو قيد مصحح للحكم لا غير، وكأنّك قلت: جاء القوم المغايرون لزيد وأكرمت الطلاب المغايرين للمهمل، كما تقول: جاء القوم الصالحون ... وقيل: إنّه قصر لأن المعنى على قصر عدم المجيء على زيد، وعدم الإكرام على المهمل وهذا ليس بقول، فالصواب هو الأول وهو أنّ الاستثناء التام الموجب يفيد القصر أي الإثبات والنفي ولكنّه ليس طريقاً من طرقه. وخلاصة القول أنّ الاستثناء المفرغ كقولك: ما جاءني إلا زيدٌ، قصر اصطلاحي باتفاق البلاغيين، والاستثناء التام المنفي كقولك: ما جاءني أحد إلا زيد، قصر اصطلاحي على الراجح من أقوالهم، والاستثناء التام الموجب كقولك: قام القوم إلا زيداً يفيد القصر وليس قصراً اصطلاحياً على الراجح من أقوالهم. (فيود، ص315 – 316.)

وجاء في عروس الأفراح: الاستثناء قصر سواء كان مع النفي أم الإيجاب، كقولك: قام الناس إلا زيداً فإنّك قصرت عدم القيام على زيد، لا يقل: لو قصرت عدم القيام على زيد لكان في قولك: قام الناس إلا زيداً نفي لقيام غير الناس؛ لأنا نقول هو قصر لعدم القيام بالنسبة إلى الناس على زيد، كما أنك إذا قلت: ما قام الناس إلا زيداً لم تقصر القيام على زيد مطلقاً، إنما

قصرت عليه القيام بالنسبة إلى الناس، فقولهم من طرق الحصر النفي والاستثناء لا يظهر فيه مناسبة للتعرض للنفي. (السّبكي، ط1، 1422م- 2001م، 493/2)

إفادة القصر من الاستثناء التام المنفي:

إذا بني الكلام على الاستثناء التام – بذكر المستثنى منه – نحو: ما قام أحدٌ إلا محمد، فإنه يفيد القصر عند البعض ولا يفيده عند الأكثرين لأمرين:

الأول: أنّ المستثنى الواقع بعد إلا في القصر ينبغي أن يكون داخلاً في تمام الدلالة، وذلك بناءً على أن القصر حكم مفاد مما بين النفي والاستثناء معاً، ولكن ذلك لا يكون في الاستثناء التام لأن الدلالة تتم فيه قبل ذكر المستثنى.

الثاني: الأصل في القصر الاصطلاحي بالنفي والاستثناء أن يدل منطوقه على حكم مثبت ويدل مضمونه على حكم منفي، لكن الاستثناء التام يدل على الموجب والمنفي معاً بمنطوقه، فهو على خلاف الأصل. ومع هذا لا نجد حرجاً في اعتبار القصر من الاستثناء التام إذا دلّ الكلام عليه دلالة قوية كقول الشاعر:

لم يَغزُ قوماً ولَم يَنْهضْ لمعركة إلا تقدّمه جيشٌ من الرعب

فالاستثناء تام لذكر المستثنى منه، ومع هذا فإن دلالته على القصر واضحة، وقد قصر الغزو على حال واحدة هي أن يتقدم الغازي رعب وفزع لماله من هيبة ورهبة وذلك من عوامل الانتصار، وهو من قصر الموصوف على صفة قصراً حقيقياً ادعائياً .(شادي، 1422هـ - 2011م، ص156-157. الديوان 59/1)

ووقعت منازعة بين البلاغيين في عد الاستثناء التام المنفي من القصر الاصطلاحي، وقالوا إن دلالة النفي والإثبات على القصر دلالة وضعية، والدلالات الوضعية لا تتخلف، ولكن قد ترد هذه الأداة في سياق فيختبئ فيها هذا المدلول كما قال تعالى: (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ)(سورة إبراهيم الآية: 11). فإن القصر في قول الرسل ليس مقصوداً لأن المخاطبين وهم الكفار يقولون ذلك ويقررونه، ولكنه جاء إقراراً من الرسل بهذه المقدمة التي استنبط منها الكفار نفي رسالتهم ليقولوا لهم أن اعتقادكم أن بشريتنا تهدم دعوانا الرسالة لا أساس له، فنحن بشر كما تقولون ولكن هذه البشرية حين يمنحها الله منّا وعطاء من سره تتحول طاقة هائلة تحمل كلمة الله وتتلقى وحيه جل جلاله، والمهم أنه لا معنى لأن يكون القصر مقصوداً ولكنهم من فرط دقتهم في الحوار ومحاولة إيناس نفوس المجادلين والاقتراب منها والسيطرة عليها بالحجة أعادوا هذه المسلمة كما نطقوا بها من غير أدنى تغيير. وذكر الشافعي – رحمه الله –في قوله تعالى: (قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ) (سورة الأنعام الآية: 145).أن القصر فيها غير مراد وذلك لأنها لم تشمل المحرمات، وإنما المراد مناقضة القوم الذين حرموا ما أحل الله وأحلوا ما حرمه، فقد ذكروا أنعاماً وحرثاً وجعلوها محجورة لا يطعمها إلا من نشاء وحرموا ما في بطون البحائر والسوائب، وقد أحلوا الميتة والدم ولحم الخنزير فناقضهم القرآن، وقال: لا أجد في ما أوحي إلّي محرماً إلا ما أحللتموه. قال السيوطي: "قال الشافعي ما معناه في قولهتعالى: (قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا) أن الكفار لما حرموا ما أحل الله وأحلوا ما حرم الله، وكانوا على المضادة والمحادة فجاءت الآية ناقضة لغرضهم فكأنه قال لا حلال إلا ما حرمتموه ولا حرام إلا ما أحللتموه نازل منزلة من يقول: لا تأكل اليوم حلاوة فتقول لا آكل إلا حلاوة، والغرض المضادة لا النفي والإثبات على الحقيقة، فكأنه تعالى قال: لا حرام إلا ما أحللتموه من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، ولم يقصد حل ما وراءه إذ القصد إثبات التحريم لا إثبات الحل قال إمام الحرمين: وهذا في غاية الحسن. والقصر وإن كان غير مقصود في هذه الآية والتي قبلها فإن المقصود من التركيب ناظر إلى هذا القصر المستكن فيه فالمناقضة والمضادة التي ذكرها الشافعي لا تنبثق من التركيب إلا لما فيه من ريح القصر لأنه يفيد أنه لا حرام

إلا ما أحللتموه ولا حلال إلا ما حرمتموه، وهذا هو وجه التجهيل والتشهير بعبثهم، وأنهم يحلون ويحرمون، وكذلك مجاراة الخصم وإرخاء العنان له حتى يعثر في فضل خطامه في آية: (إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ)ناظر إلى ما يستكن في التعبير من قصر غير مقصود ولاحظ أنهم يقولون القصر فيها غير مراداً وهذا تسليم بالقصر فيها ونفي لإرادته.(أبو موسى، 1429هـ – 2008م، ص 136 – 138).

القصر من الاستثناء المفرغ: وهذا قد أجمع البلاغيون على دلالته على القصر وبين ذلك السكاكي بقوله:

إلا في الكلام الناقص تستلزم ثلاثة أشياء:

أحدها:المستثنى منه، لكون "إلا" للإخراج، واستدعاء الإخراج مخرجاً منه.

وثانيها: العموم في المستثنى منه؛ ، لعدم المخصصوامتناع ترجيح أحد المتساويين، ولذلك ترانا في علم النحو نقول: تأنيث الضمير في كانت، في قراءة أبي جعفر المدني: (إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً)(سورة يس الآية: 29).بالرفع وفي "تُرى" المبني للمفعول في قراءة الحسن:(فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ)(سورة الأحقاف الآية: 25).برفع مساكنهم وفي "بقيت" في بيت ذي الرمة:

وما بقيت إلا الضُّلوعُ الجراشِعُ

للنظرإلى ظاهر اللفظ، والأصل التذكير لاقتضاء المقام معنى شيء من الأشياء.

وثالثها: مناسبة المستثنى منه للمستثنى في جنسه ووصفه، وأعني بصفته كونه فاعلاً أو مفعولاً، أو ذا حال أو حالاً، أو ما يرى كيف يقدر المستثنى منه في نحو: ما جاءني إلا زيد، مناسباً له في الجنس والوصف الذي ذكرت، نحو: ما جاءني أحدٌ إلا زيد، وفي: ما رأيت إلا زيداً، نحو مارأيت أحداً إلا زيداً، وفي ما جاء زيد إلا راكباً، نحو ما جاء زيد كائناً على حال من الأحوال إلا راكباً. وهذه المستلزمات توجب جميع تلك الأحكام.(السكاكي، 1420هـ – 2000م، ص 409–410).

وجاء في معاني النحو: إلا سواء كانت في التفريغ أم في غيره تفيد الاختصاص، فإذا قلت قام الرجال إلا خالداً، فقد أثبت القيام لجميع الرجال ونفيته عن خالد حصراً، وإذا قلت ما قام ما قام إلا خالد، فقد نفيت القيام عن كل أحد وأثبته لخالد حصراً، قال الرماني: "معنى إلا اللازم لها الاختصاص بالشيء دون غيره، فإذا قلت جاءني القوم إلا زيداً فقد اختصصت زيداً بأنه لم يجيء وإذا قلت "ما جاءني إلا زيد" فقد اختصصت هذه الحال دون غيرها من المشيء والعدو ونحوه" غير أن القصر في التفريغ أعم وأشمل، وذلك إذا قلت: "ما حضر الرجال إلا خالداً" فقد استثنيت حضور خالد مع الرجال، وقد يكون أطفال أو نساء فإن قلت: "ما حضر إلا خالد" فقد نفيت كل حضور غير حضوره، ولذا لا يصح أن تقول: "حضر إلا خالداً" لأنه على ذلك يكون معناه أنه حضر كلّ من يمكن حضوره في الدنيا من رجال ونساء وأطفال وغيرهم إلا خالداً وهو غير صحيح، فإنه يمكن أن لا يجيئك إلا واحد، ولكن يمتنع أن يأتيك أهل الدنيا كلهم إلا واحداً. (السامرّائي، 1420هـ – 2000م، 2/249–250).

فوائد الاستثناء المفرغ عند البلاغيين:

الاستثناء المفرغ عند البلاغيين هو: "القصر" وهو في قوة جملتين في علم المعاني بأن يكون الكلام كثيراً بألفاظ قليلة، وله فوائد كثيرة منها ما ذكرها صاحب التركيب الاستثنائي في القرآن الكريم حيث قال: ويذكر أهل البلاغة في إفادة القصر في الاستثناء المفرغ أنّ النفيفي أول الجملة ينصب على المستثنى منه المقدّر، ففي قوله تعالى: (يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ) (سورة البقرة الآية: 9).فهنا المستثنى منه المقدر "وما يخدعون أحداً" فإذا ثبت شيء منه بواسطة إلا بعد النفي إثبات: "إلا أنفسهم أخرج بذلك البعض من الكل، فيتحقق حكم الإتيان للمذكور المستثنى، ويتقى عمّا سواه، المستثنى

منه وذلك هو مفهوم القصر. والذي يذهب إليه بعض الباحثين اعتماداً على ملاحظة السيوطي بأن الحصر في الاستثناء المفرغ "في قوة جملتين" هو أنّ القصر في مظهره النحوي شكل متولّد عن جملتين، إحداها منفية والأخرى مثبتة: "وما يخادعون أحداً" "يخادعون أنفسهم"، وتبدو الجملتان متضاربتين لا يستقيم معنوياً توليهما في الكلام، لأن النفي إثبات في الأولى ينفي كل صيغة من صيغ الإثبات بعده، كما أنّ الإثبات في الثانية يستوجب مبدئيّاً إبطال كل نفي سابق. إلا أنّ التصرّف في عناصر الجملتين يحذف المفعول به في الأولى "أحداً" والمسند في الثانية "يخادعون" وتعويضهما بأداة الاستثناء "إلا" يجعل الجمع بين النفي والإثبات المتضاربين حسبما سبق ممكناً بل مقصوداً. إنّ الجمع بين النفي والإثبات في تركيب واحد وعلى حال من التآلف يجعل الكلام مخصوصاً بالمثبت دون المنفي، وهذا الجمع بين حكمين متنافرين في الأصل هو الذي يجعل القصر تركيباً طريفاً، مظهره جملة أحادية وأساسه جملتان مستقلتان متضاربتان فهو من هذه الناحية في قوة جملتين. (الكعبي، 1993م، ص81).

المفرغ لا يأتي بعد الإيجاب وإنما اشترطوا له تقدم نهي أو نفي أو شبهه، وعللوا ذلك بأن وقوع المفرغ بعد الإيجاب يتضمن المحال أو الكذب، وأن يكون الكلام محمولاً على ما كان عليه قبل دخول الاستثناء، وقد ورد في القرآن الكريم بعد الإيجاب، ويجوز التفريغ لجميع المعمولات إلا المفعول معه، والمصدر المؤكّد لعامله وكذا الحال المؤكد لعامله وسبب المنع وقوع التناقض بذكر المعنى مثبتاً ومنفياً قبل: "إلا" ثم مخالفته بعد: "إلا" ويجوز أن يقع التفريغ في الفاعل والظرف والجار والمجرور والنعت بالجملة.

الاستثناء والتخصيص عند البلاغيين: البلاغيون لم تك لهم عناية في مبحث التخصيص إلا بصورة واحدة من صوره: صورة الاستثناء المفرغ، وهم يؤكدون أنّ "النفي" بأي أداة من أدواته، كليس وما ولن وغيرها من أدوات النفي، والاستثناء بإلا ولحدى أخواتها صالحٌ طريقاً للتخصيص وهم يقصرون التخصيص الحصري على ما دل على إثبات شيء لشيء ونفيه عن غيره بطريق مخصوص، وأقوى هذه الطرق طريق الاستثناء المفرغ.

وهو يمتاز بأمور منها:

الأول: التصريح بأداة النفي والاستثناء. **والثاني:** تنوع الأدوات تنوعاً يتلاءم مع المعنى الذي يُراد البيان عنه، والسياق الذي يتحدث فيه، فطبائع المعاني واختلاف السياقات تستدعي ما يتلاءم معها من أدوات النفي والاستثناء فالنفي بـ "لا" غيره بـ "لن"، والنفي بأداة استفهام غيره بأسلوب الخبر، والاستثناء بـ "إلا" غيره بـ "سوى" أو "غير" وذلك أمر تلاحظه البصيرة البيانية النقّية، فلا تتساوى عندها عطاء الأدوات. وإذا كان جمهور البلاغيين لا يعتّون في باب القصر "بصور الاستثناء الموجب التام، والمنفي التام فإن البهاء السبكي يذهب إلى أن الاستثناء قصرٌ سواء كان مع النفي أم الإيجاب، كقولك: "قام الناس إلا زيداً" فإنك قصرت عم القيام على زيد. لا يقال: لو قصرت عدم القيام على زيد لكان في قولك: "قام الناس إلا زيداً" نفياً لقيام غير الناس. لأنا نقول هو قصر لعدم القيام بالنسبة إلى الناس على زيد، كما أنك إذا قلت: "ما قام الناس إلا زيداً" لم تقصر القيام على زيد مطلقاً، إنما قصرت عليه القيام بالنسبة إلى الناس، فقولهم من طرق الحصر النفي والاستثناء لا يظهر فيه مناسبة للتعرض للنفي.(سعد، 1430هـ – 2009م، ص299 –301).

الاستثناء المنقطع عند البلاغيين:

الاستثناء عند البلاغيين يتضمن ضرباً من المحاسن زائداً على ما يدل عليه اللغوي.وذكر ذلك صاحب معجم البلاغة العربيّة في قوله تعالى: (فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ {30} إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ {31})(سورة الحجر الآيتان:30 – 31).فإنّ هذا الاستثناء لو لم يتقدّم لفظه هذا الاحتراس من قوله تعالى: (كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ) لما جاز إثباته في أبواب البديع فإنّه

لو اقتصر فيه على قوله: "فسجد الملائكة إلا إبليس" لاحتمل أن يكون من الملائكة من لم يسجد، فيتأسّى به إبليس، ولا يكون منفرداً بهذه الكبيرة، لاحتمال أن تكون آلة التعريف للعهد لا للجنس. فلما كان هذا الإشكال يتوجّه على الكلام إذا اقتصر فيه على ما دون التوكيد وجب الإتيان بالتوكيد، ليعلم أن آلة التعريف للجنس، فيرتفع هذا الإشكال بهذا الاحتراس. فحينئذٍ تعظم كبيرة إبليس، لكونه فارق جميع الملأ الأعلى، وخرق إجماع الملائكة، فيستحق أن يفرد بما جرى عليه من اللعن إلى آخر الأبد.(طَبَانة، 1408هـ – 1988م،ص118).

وتقع هذه الصورة من تأكيد النفي بالاستثناء على مرتبتين:

الأولى: " ما هو تأكيد محض، وهو ما ليس بين المستثنى والمستثنى منه علاقة معنوية ولو على سبيل الشبه، وقد عبّر عن ذلك بأنه "هو: ما كان المستثنى فيه منقطعاً عن المستثنى منه أصلاً ويبدو أنّه لم يجد عليه مثالاً في القرآن فمثل عليه بقول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفَهم بهن فلولُ من قراع الكتائب

(الديوان، ص 33).

والثانية: ما هو تأكيد في الجملة، وهو: ما يمتّ المستثنى للمستثنى منه بصلة مشابهة بوجه من الوجوه، وقد عبّر عن ذلك بأنه " هو: ما المستثنى فيه ليس من جنس المستثنى منه لكنه قريب منه بالمشابهة ومثل لذلك بقوله تعالى:(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا) (سورة الفرقان الآية: 55).لأن الكلام على حذف مضاف يناسب أجراً، إذ التقدير: إلا عمل من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا، وذلك هو اتباع دين الإسلام، ولما كان هذا إجابة لدعوة الرسول – صلى الله عليه وسلم – أشبه الأجر على تلك الدعوة.الزهراني، ص642.

الفعل زاد في الاستثناء:الاستثناء في هذا الباب استدراك، فهو ملحق بالمنقطع من تأكيد الشيء بما يشبه ضده، كناية دالة على نفي الزيادة والنفع. والفعل "زاد" في القرآن الكريم ذو شأن متنوع في أساليب القصر.

قال تعالى: (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا {5} فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا)(سورة نوح الآيتان: 5،6).

وهنا التعجب فلمكان سبباً للهدى والإقبال انقلب لديهم سبباً لا للإعراض فحسب بل للفرار تصويراً حركياً لإدبارهم المستمر، ومن حديث نوح في سورته وهو تقرير مفصل أو اعتراف كامل بقصته على سبيل الإيجاز نحس الأسى والحزن والشكاة الجريحة، والتفويض الواثق ومنه (وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا)(سورة نوح الآية: 21).

وهنا أيضاً التناقض الحاد في موقفهم فالشيء أصبح نبعاً للنقيض: فالمال والولد وهما نعمة تبصر بالمنعم تلك التي لم تزدهم إلا وجاهة ومنفعة زائدة في الدنيا كانت سبب خسار ابتدأ بنهايتهم واستمر في آخرتهم وزيادة الخسار الأخروي توحي بأن الخسار كالصفة اللازمة لهم، بل سمة يعرفون بها تحقيقاً وتصويراً مؤكداً للخسار. والمقصود بقوله: (وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا) هم الملأ الأشراف من رؤسائهم وكبرائهم وقد قادوهم في طريق الضلال حتى أخسروهم وأهلكوهم. ثم كان دعاء نوح عليهم(وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا)(سورة نوح الآية: 24) (وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا)(سورة نوح الآية: 28). وقد وسمهمبالظلم مرتين لأنهم تجاوزوا الحد في الكفر وزادوا في الطغيان وهو سبب لهذا الدعاء عليهم الذي انتهى بطلب الهلاك الزائد تناسباً. وصف الكافرين بزيادة المقت أو النفور أو الخسار قريب المأخذ لأن أصل الحدث موجود بوجود رأس البلاء وهو الكفر بالله تعالى. كقوله تعالى: (وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا) (سورة فاطر الآية: 39).

وكقوله تعالى:(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا) (سورة الإسراء الآية: (41).

والمراد بالناس الكفار والنفور من صفة الدواب وهو المعهود في ذم الكفار في القرآن. لكن المشكل وصف المؤمنين بزيادة الخبال أو وصف صالح عليه السلام بزيادة التخسير في بعض المواقف وقد قعد المنافقون مع الخالفين عن غزوة تبوك في جيش العسرة، واختلقوا أعذ اراً ففضح الله نفاقهم، وعرى بواطنهم، ثم بين أنهم لو خرجوا لكانوا فتنة وبلاء (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ {46} لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)

(سورة التوبة الآيتان: 46،47). ولما كان أصل الخبال غير موجود في معسكر المؤمنين فقد أورد بعض العلماء رأياً بالانقطاع أي ما زادوكم قوة ولا شدة لكن خبالاً كما رأى الزمخشري وغيره أنه من المتصل وليس المنقطع لأن المستثنى منه مقدر بأعم العام وهو شيء، والخبال بعضه ومعنى الخبال الفساد والشر وعلى هذا فمعنى زادوكم أورثوكم عندهم، وأحسب – والله أعلم – أنه عبر بالفعل زاد، لبيان خطر المنافقين الجسيم على الطائفة المؤمنة، كما يجوز أن يراد بالمخاطبين "بعضهم" بدليل "وفيكم سماعون لهم" أي فيكم قوم ضعفة نمامون أو يسمعون المنافقين كما أولها أبو السعود وهؤلاء الضعاف قد يسيئون فيسببون مع المنافقين البلبلة والفساد وتفريق الكلمة. كما جاء في مقالة صالح عليه السلام لقومه:(يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ)(سورة هود الآية: 63).

أما إن عصيت بالمساهلة في تبليغ الرسالة، ومجاراتكم فيما تأتون وتذرون لا تفيدونني غير تخسيري وإبطال عملي، وقد أول بعضهم تزيد بمعنى تفيد إذ لم يكن فيه أصل الخسران حتى يزيدوه. ولم يوضح أحدهم سر استعمال الفعل زاد دون سواه، ويبدو – والله أعلم – أنه لزيادة التهويل، واستبعاد عصيان الله تعالى، وأن مجرد التفكير في ذلك يوقعه في الخسار العظيم، بله المعصية المرة ولعل مما يصعد هذا الشعور بالاستبعاد والتهويل أنه عبر بلفظ الجلالة بعد ذكر "ربي" في الآية قبلها – وذكره تقدس وجل – أدل على مواقف الأخذ والانتقام. ولذا نفهم دلالة سياق "تخسير" دون خسار مثلاً. أي أتجعلوني أكثر خساراً. فكان اتباعهم يضاعف الخسار مرتين بالفعل: "تزيد" والمصدر "تخسير" وهو مناسب للمعروف في القرآن من تضعيف الجزاءخيراً حقيقة أو شراً تقديراً وفرضاً للرسل والأنبياء ونسائهم. وثم رأي آخر وهو أن التخسير معناه نسبتهم إلى الخسران فتكون صيغة نسب نحو كفر وفسق: أي نسبة للكفر والفسق، والمعنى: لا تزيدونني بهذا الرأي الفائل الآسن إلا أن أؤكد حكمي عليكم بالخسران، والأول أقوى وأقرب. دراز، ص 50 – 52.

قد يرد النفي والاستثناء فيما لا يتصور فيه إنكار مخاطب أو تنزيله منزلة منكر، تأمل قوله تعالى: (وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)(سورة الأنبياء الآية: 87).تجد أن صفة الألوهية قد قصرت على الله سبحانه وتعالى قصراً حقيقياً تحقيقياً، وطريق القصر هو النفي والاستثناء، ولا نستطيع القول بأن المخاطب هنا منكر أو منزل منزلة المنكر، كيف ويونس – عليه السلام – يضرع إلى الله عز وجل بهذا الدعاء فلا يتأتى ولا فيه مراعاة حال المخاطب – جل وعلا – وإنما التأكيد هنا مرده إلى حال المتكلم وهو يونس – عليه السلام – ومدى انفعاله بالخير، فقد ألقى الخبر مؤكداً كما أحس، وكما امتلأت به نفسه، وفاض به ضميره، دون نظر إلى حال مخاطب. وتأمل قوله:(إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) وماذا لو قيل: لا إله إلا أنت سبحانك فأنا من الظالمين، إنه يكون كلاماً ساقطاً، فأنت تشعر عندئذٍ بخلخلة في السياق وعدم تناسق، مرده إلى التخلي عن التأكيد الذي يبرز قوة الخبر واستقراره في نفس المتكلم.

وانظر إلى قول دريد بن الصّمة:

وَهَلْ أنا إلا مِنْ غَزِيَّةَ إنْ غَوَتْ وإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةَ أَرْشُدِ

إنه يفخر بالانتماء إلى قبيلته وقومه، وقد ألقى الخبر مؤكداً ليعبر عن استقراره في نفسه وعن عمق شعوره بهذا الانتماء، ولو حاولت أن تتصور هنا مخاطباً منكراً أو منزلاً منزلة المنكر لكنت كمن يحاول المحاول، ويتعسف في القول تعسفاً الكلام في غنى عنه. وبهذا يتضح لك أنّ حال المخاطب لا يمكن أن يعول عليها دائماً في استخدام "النفي و الاستثناء" أو في تأكيد الخبر، بل قد ينظر إلى غير المخاطب.فيود، (2015م، ص340 – 341) والديوان ص 35.

وقد يستعمل النفي والاستثناء في الأمر المعلوم: لاعتبارات بلاغية مناسبة : ومن ذلك قوله تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ) (سورة آل عمران الآية: 144).

ففي الآية قصر للرسول – صلى الله عليه وسلم – على صفة الرسالة لا يتعداها إلى التبري من الهلاك، فهو رسول يموت ويخلو كما خلت الرسل من قبله، والمخاطبون وهم الصحابة رضي الله عنهم، يعلمون يقيناً أنه – صلى الله عليه وسلم – مقصور على الرسالة ولا يتجاوزها إلى الخلد، فهو غير جامع بين الرسالة والتخليد في الدنيا، ولكنهم لما كانوا متعلقين به – عليه الصلاة والسلام –ويستعظمون موته، ويعدونه أمراً خطيراً وحدثاً جليلاً، نزلوا منزلة من ينكر موته، ويعتقد أنه يجمع بين الرسالة والخلد أو التبري من الهلاك فخوطبوا خطاب المنكر.

والسر البلاغي هو تصوير حال الصحابة والإشعار بعظم ذلك الأمر في نفوسهم وشدة حرصهم على بقائه – صلى الله عليه وسلم – بينهم، كما لا يخلو الأمر من عتاب عنيف لهم لعدم مضيهم على وفق ما يعلمون، وهو راسخ في نفوسهم، ولا يخفى عليك هذا المعنى عندما تقرأ سياق الآية الكريمة:(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ) (سورة آل عمران الآية: 144).، فأنت تشعر بنعمة العتاب والتحذير من الانقلاب على الأعقاب وعدم المضي على ما ثبت في النفوس ورسخ، من إيمان واعتقاد، ولو استعملت "إنما" هنا، لكونها للأمر المعلوم غير المنكر فقيل: إنما محمد رسول يخلو كما خلت الرسل من قبله لما كان هذا المعنى ولما تحققت تلك المزية وهي إبراز حال الصحابة، وتصوير شدة الموقف وما أصابهم من هول. واقرأ قوله تعالى: (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوَاْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)(سورة إبراهيم الآيتان: 10–11).فالرسل عليهم السلام لا ينكرون أنهم بشر ولا يجهلون ذلك، ولكنهم نزلوا منزلة من ينكر ذلك ويدفعه، فجاء القصر بالنفي والاستثناء: "إن أنتم إلا بشر مثلنا ..." لاعتقاد الكفرة أنّ الرسول لا يكون بشراً، وإصرار الرسل – عليهم السلام – على دعوى الرسالة، فهم بهذا الإصرار قد أنكروا بشريتهم – في اعتقاد المتكلمين وهم الكفرة – واعتقدوا أنهم ليسوا بشراً، فكان القصر: "إن أنتم إلا بشر" قصر قلب أي: أنتم بشر لا رسل، بناء على اعتقاد الكفرة الفاسد، التنافي بين الرسالة والبشرية وعدم اجتماعهما، وإيثار التعبير بالنفي والاستثناء في هذا الأمر المعلوم الذي لا ينكره الرسل بتنزيلهم منزلة المنكر، يصور حال الكفرة وما خيم عليهم من جهل واعتقادات فاسدة أعمتهم عن الحق وحالت بينهم وبين قبول الهداية. أما قول الرسل لهم "إن نحن إلا بشر مثلكم" فمن مجاراة الخصم، للتبكيت والإلزام والإفحام، لأن من عادة من ادعى عليه خصمه الخلاف في أمر لا يخالف فيه ولا ينكر، أن يعيد كلامه على وجهه، كما إذا قال لكمن يناظرك: أنت من شأنك كذا، فتقول: نعم أنا من شان كذا ولكن لا يلزمني من أجله ما ظننت أنه يلزم، فكأن الرسل – عليهم السلام – قالوا: إن ما قلتم من أننا بشر مثلكم هو ما قلتم لا ننكره، ولكن ذلك لا يمنع أن يكون الله قد من علينا بالرسالة فالله يمن على من يشاء من عباده. فقد سلم الرسل بتلك المقدمة: "إن نحن إلا بشر مثلكم" بألفاظها ومعناها وفي هذا ما يؤنس نفوس الكفرة، ويستميلهم نحو الحق والهدى، ولكنه لا يستلزم مقصودهم وهو أن الإنسان لا يرقى إلى أهلية الرسالة، إذ لا منافاة عند الرسل والمؤمنين بين الرسالة والبشرية فليس هناك ما يمنع من أن

يرقى الإنسان ويسمو فيكون من عباد الله الذين اصطفى ويصير أهلاً للرسالة وتلقي الوحي.(فيود، 1436هـ – 2015م، ص 338 –339).

أغراض النفي والاستثناء:انفرد القصرمن واقع البيان النبوي بسمات خاصة تطلبتها أساليب الدعوة كما سنجد نحواً من القصر جاء في صياغة لافتة للذهن تعمق المعنى وتظهره في إطار يناسب درج أهميته لأغراض بلاغية مختلفة.

1– الترغيب: عن علي رضي الله عنه عن النبي – صلى الله عليه وسلم – "ما من مسلم يعود مسلماً غدوة إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يعشى، وإن عاده عشية إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح، وكان له خريف في الجنة" رواه الترمذي و أبوداود.(ناصف، 1381هـ – 1961م، 350/1).

عن ابن عباس عن النبي – صلى الله عليه وسلم –: "ما من عبد مسلم يعود مريضاً لم يحضر أجله: فيقول سبع مرات: أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك إلا عوفي"رواه الترمذي. (ناصف،1381هـ – 1961م، 197/3.)وفي الأول دعوة صريحة إلى عيادة المسلم المريض، وفي الثاني دعوة إليها باعتبار بركتها، ودعوة إلى هذا الدعاء المبارك، وصلاة سبعين ألف ملك على عائد المريض أو ضمان المعافاة للمريض لمجرد كلمات تقال: حكم غريب يفجأ الخاطر وقد ينكره، ولذا ساقه الحديث قوياً مزيلاً لما يثار ضده انفعال أوشك وذلك بالنفي والاستثناء، والمنفي نكرة مسبوقة بمن المؤكدة للنفي لجعلها تأخذ شكل القاعدة أو الحقيقة العامة.

2– التفصيل في المقصور: "إثارة للشوق وتبريراً للحكم"

ونود هنا أن ننبه إلى سمة خطيرة في القصر النبوي أثارت عقولنا، وحملتنا على التتبع المتأني، هذه السمة هي أنّه في كثير من أحاديث القصر لا يتبع المقصور عليه المقصور مباشرة في النفي والاستثناء، لكن يتبع المقصور بفيض من الصفات المتلاحقة التي تجذب انتباه المخاطب وتثير أشواقه، لتتبع الكلام الذي يكون مقصوراً خاصاً بصفات معينة، وكل جملة تتبعه تزيد هذا الشعورحتى إذا جاء المقصور عليه وقع من النفس موقعاً مطفئاً هذا الشوق أولاً، ومؤكداً المعنى لغرابته ثانياً، وتحقيقاً للغرض الداعي إلى الكلام ثالثاً كما في الحديثين السابقين. ونقدم هذين الحديثين: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –" ما من الناس من مسلم يتوفى له ثلاثة لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة برحمته إياهم رواه البخاري والنسائي".(ناصف، 1381هـ – 1961م،/348).

عن عثمان بن عفان – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – "ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها، إلا كانت له كفارة لما قبلها من الذنوب، ما لم يأت كبيرة وذلك الدهر كله. رواه مسلم.(ناصف، 1381هـ – 1961م ، 135/1).

وفي الحديث الأول: تقدمت "من الناس" على الموصوف النكرة "مسلم" المتبوع بالوصف "يتوفى له ثلاثة" وصراحة النفي وعمومه يشد الانتباه والشوق ويثير شعور العطف عند المخاطب ويؤكد النفي، ثم تأتي العبارة "لم يبلغوا الحنث" بالاحتراس المقلل من العموم تثير مزيداً من اللهفة والعطف، وإن كان الوجدان يركن إلى جزاء طيب، يأتي بعد أداة الاستثناء "إلا" قصراً للمسلم في هذه الحالة السابقة على إدخاله الجنة دون النار، قصر موصوف على صفة، وهو جزاء لا مفر منه أثر الصفات التي تبعث المقصور وأفادت الترشيح، والتمهيد، والتبرير للحكم الذي ارتفع بالجزاء قمة تتناسب مع قوة الترغيب في الصبر على وفاة الأولاد.

والحديث الثاني: تتوالى صفات المقصور "امرئ مسلم" توالياً زمنياً تتعاقب فيه الأحداث التي تمهد للجزاء الذي جاء مقصوراً عليه تحقيقاً له، وحبساً للمقصور عليه، فلا يتعداه فقد وضح أن الجزاء في الحديثين مرغب فيه وفي سببه من صبر وصلاة، ثم لأن الجزاء غيبي وجزيل وجب تحقيقه بالقصر الخاص.

3- التفصيلفي المقصور عليه: "تحقيقاً للمعنى ودعماً للغرض" سبق التفصيل في المقصور إثارة للشوق وتبريراً للحكم واستيفاء لأجزاء المقصور لكن قد يفصل في المقصور عليه لإتمام المعنى، وانصباب الاهتمام عليه، وتعلق الغرض به.

عن أبي هريرة عن النبي – صلى الله عليه وسلم –: "ما من يوم يصبح العباد فيه إلا من ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً"رواه الشيخان والنسائي.(ناصف، 1381هـ – 1961م ، 4/2).

وعنه عن النبي – صلى الله عليه وسلم – "ما من مسلم يلبي إلا لبى من على يمينه ومن شماله من حجر أو شجر أو مدر حتى تنقطع الأرض من ههنا وههنا". (ناصف، 1381هـ – 1961م، 121/2).

فالمقصور عليه "مكان، مسلم" اسم موصوف وعطف عليه جمل تبين سر الترغيب والترهيب مع ما في الأول من أحداث غيبية مثيرة تقتضي تحقيقها بطريق القصر. كما نجد هذا التفصيل الغيبي الطريق في التجاوب المشرق بين الملبي ومظاهر الطبيعة، إن الإشعاع الوجداني يمتد فيجعل الكون كله في هيام وضراعة، ولما كان الحكم على جلالة وطوله غريباً أداة القصر.

4- تأكيد حقيقة غيبية وصفية: عن أبي سعيد – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم –: "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذٍ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي"رواه مسلم.(ناصف، 1381هـ – 1961م، 163/4).

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم – "ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحى الله فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة" رواه مسلم، (ناصف، 1381هـ – 1961م، 228/4).

ونبي الرحمة عليه الصلاة والسلام قمة في التواضع حتى وهو يحدث بنعم الله نلحظ ذلك في تكرار اللازمة "ولا فخر" ولبيان أنه سيد الأولين والآخرين يأتي القصر تدعيماً للحقيقة ورداً لإنكار وجد أو افترض من لا يدين بالإسلام، وقد أتى الظرف والبدل وما عطف عليه "يومئذٍ آدم فمن سواه" تمهيداً وتقوية للقصر، وهو من قصر الموصوف "الأنبياء" على صفة "أتباع محمد – صلى الله عليه وسلم" والوقوف تحت لوائه، والقصر في الحديث الثاني يبين تنوع المعجزات ومناسبتها لمن سيقت إليهم وهو أمر خاص بتاريخ الأمم والشعوب، وتنوع عقلياتهم ومواهبهم، ولك أمر يحتاج إلى تأكيد، فجاء القصر لبيان هذه الحقيقية النادة عن العقول، قصر كل "نبي" على إعطائه معجزة يؤمن عليها البشر، تحقيقاً لهذا الحكم وتمهيداً للأهم وهو بيان معجزة النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – ولما كانت المعجزات قبله قد سلفت وانتهت بموتهم جاء النفي والاستثناء مؤكداً هذا الحكم الغيبي أو التاريخي لكن لما كان وحي السماء معجزة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام قرآناً يتلونه جاء القصر بإنما لبيان المعجزة المحمدية وأنها وحي من عند الله لا من غيره، تعريضاً بوجوب اتباعه لأن معجزته جديدة دائماً تتحدى على الزمن.

5- تحقيق الجزاء المثير: وقد يحقق الجزاء بطريق القصر، وكون غيبياً مثيراً للدهشة، والغرابة فيؤكد بالقصر نفياً لكل شك، وتثبيتاً للحكم ترغيباً أو ترهيباً: عن أبي هريرة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: "ما من أحد يسلم عليّ إلا ردّ الله عليّ روحي حتى أرد عليه السلام" رواه أبو داود والبيهقي. (ناصف، 1381هـ – 1961م ، 189/2).عن أبي ذر قال رسول

الله – صلى الله عليه وسلم –: "والذي نفسي بيده ما من رجل تكون له إبل أو بقر أو غنم لا يؤدي حقها إلا أتى يوم القيامة أعظم ما تكون وأسمنه تطؤه بأخفافها، وتنطحه بقرونها، كلما جازت أخراها ردت عليه أولاها حتى يقضي بين الناس". فرد روح النبي – عليه السلام – ليرد السلام على من يسلم عليه قد يغلفه توهم الريب فأكد الحكم مع صياغة الأسلوب وسوقه سوق الحقائق ترغيباً في التعبد بالصلاة والسلام على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كما أمر الله ويخيل إلّي أن في الحديث إيماء إلى حياة النبي في قبره لأنه لا تخلو لحظة يصلي فيها مسلم على نبيه عليه لصلاة والسلام. والحديث الثاني وعيد لمن لم يؤد زكاة أمواله، ولما كان المقام للوعيد والترهيب نجد هذه الصورة التي يتابعها الخيال بشغف ورغب، والصورة مؤكدة تنفي كل شك، كما نلاحظ التفصيل في الطرفين إثارة للشوق، وتحقيقاً للمعنى ودعماً للغرض. (دراز، 1435هـ – 2014م، ص 234– 238).

وأشار الزمخشري إلى إفادة "إلا" التأكيد، أي تأكيد ما استعملت فيه وهذا التأكيد معناه الذي تفرعت عليه دلالة القصر لأنه تأكيد على تأكيد ثم إنه يتجدد معناه تبعاً لتجدد الجملة واختلاف سياقها. فمن ذلك التأكيد في **مقام النصح والإرشاد**، وذكر قوله تعالى: (قُلْ مَا أَسْأَلُكُم عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاء أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا)(سورة الفرقان الآية: 57)."إلا من شاء الله" والمراد إلا فعل من شاء: واستثناؤه عن الأجر قول ذي شفقة عليك قد سعى لك في تحصيل مال ما أطلب منك ثواباً على ما سعيت إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضيعه، فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب، ولكن صوره هو بصورة الثواب وسماه باسمه، فأفاد فائدتين: إحداهما قلع شبهة الطمع في الثواب من أصله كأنه يقول لك إن كان حفظك لمالك ثواباً فإني أطلب الثواب، والثانية إظهار الشفقة البالغة وأنك إن حفظت مالك اعتد بحفظك ثواباً ورضى به كما يرضى المثاب بالثواب، ولعمري إنّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان مع المبعوث إليهم بهذا الصدد وفوقه.(الزمخشري، الطبعة الأخيرة، 1392هـ – 1972م،97/3).

تأمل حين يتوالى قصران أو أكثر، بحيث يكون الثاني مؤكداً لمضمون الأول ستجد في توليهما ما يسمى بتصعيد المعاني وهو ما أطلق عليه علماؤنا "**الترقي في الترتيب**" وهو التدرج في التأكيد وصولاً إلى الغاية المناسبة اقتصاداً في التأثير وبلاغة في سياسة النفوس. وفي أحيان كثيرة يأتي الأسلوبان بأن و إلا في الأول، أو ما و إلا، وفي الثاني إن و إلا، أو في الاثنين بإن و إلا: قال تعالى: (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) (سورة سبأ الآية: 43).

فقد تدرج انفعالهم اللاهث من سخرية وتهكم بالداعي عليه الصلاة والسلام إلى تأكيد افتراء المتلو وهو القرآن العظيم، حاشاه، ثم بلغ غضبهم حده فرموا بمقولتهم حارة دافقة متلمظة (إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) وقال أصحاب القرية لرسل عيسى عليهم السلام:(قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ)(سورة يس الآية: 15).فالجملتان الأوليان مقدمة زائفة لهذه النتيجة – في زعمهم –ترقياً في التأكيد وتصويراً لتدافع الانفعال. وفي دعوة يوسف عليه السلام صاحبي السجن إلى عبادة الله وحده، وهي دعوة ذكية اعتمدت الأسلوب الخطابي والبرهاني أسلوباً نفسياً نبوياً مدعوماً بالمعجزة يقول فيها:(مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ)(سورة يوسف الآية: 40).أربعة أساليب متلاحقة بدأت بما وإلا مؤكداً أن الأصنام تلك أسماء وهي لا مسمى لها في دنيا الواقع، لم يأذن بها الله كناية مصورة عن وضوح بطلانها وخرق عبادتها، ثم أكد ذلك بهذا المقابل الجليل (إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ)والثالث بالنهي والاستثناء دافعاً بالأسلوب والقضية إلى غايته وهدفه الحق (أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ) وجاء الرابع تأكيداً لذلك(ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)بتعريف الطرفين واتحادهما مدلولاً، تدرجاً إلى تقرير دين التوحيد وهو

الدين القيم. وفي الترقي انفعالاً وتأكيداً جاء قول النسوة لما رأين يوسف وأكبرنه وقطعن أيديهن: "حش للهما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم"والجملة الثانية مداخلة للجملة الأولى من ثلاثة أوجه:

وجهان شبيهان بالتأكيد وهما أنه إذا كان ملكا فهو على التحقيق لا يكون بشراً فانياً، وثانياً أن الحال إذا كان للتعظيم والتعجب من فرط جمال وحسن يراه الإنسان إذا قيل ما هذا بشراً أن يكون الغرض أنه ملك فهو تأكيد لأنه تحقيق لما فهم من قبل. والوجه الثالث: شبيه بالصفة فهو أنه إذا نفى الجنس أثبت له جنس آخر، فإثبات أنه ملك تبيين وتعيين لذلك الجنس وهو مبني على سؤال مقدر ويعني شبه كمال الاتصال. ونضيف هنا: أنّ هذا الترقي بالقصر تأكيداً ونعتاً، ما هو إلا تصوير لانبهار النسوة وسحرهن من حسن قاهر غلاب في لحظة دهش غطى فيها الانفعال والأخذ وكل رسل الوجدان على العقل الذاهل ولذا سارعت الألسن في لحن جماعي وجداني مأخوذ ليس للعقل فيه نصيب وذاك يجعل إثبات الملكية إنما هو على سبيل التحقيق انفعالاً لا التشبيه الذي يكون للعقل واليقظة فيه أثر، وهنا صياغة القلب الأنثوي المحترق الدائر في دوامة الكيد بعيداً عن قدس الإيمان. كما أنّ الأسلوب إذا بدأ بالأقوى "بإن و إلا" جاء الأسلوب الثاني مثله وهذا إذا كانت الجهة واحدة أو الغرض الخاص واحداً بدلالة المقام كقوله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿117﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾(سورة النساء الآيتان: 117-118).

ومعنى يدعون: يعبدون، وعبادة الشيطان هي طاعتهم له في وسوسته وإغرائه على عبادة الأصنام – على التأويل – فلا ينافي في الحصر الأول وقيل: يدعون: يطيعون: قال هنا الألوسي: "فلا منافاة" والأخير واه، إذ ليس من دلالة دعا في القرآن: الطاعة بل: النداء أو التسمية أو الابتهال، والطاعة جزء من الدعاء بمعنى العبادة وهذا أبعد تأويلاً من الأول. (دراز، ط1436،1هـ - 2015م، ص129 - 132).

ومن خلال هذه الدراسة تم التوصل إلى النتائج الآتية:

1. أن أسلوب الاستثناء هو أقوى الطرق في أسلوب القصر.
2. أن الاستثناء يقع في علم البديع بما يسميه البلاغيون من تأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه.
3. أن الأصل في النفي والاستثناء أن يرد لأمر ينكره المخاطب ويكون للأمر غير المعلوم.

المراجع:

1- القرآن الكريم.

2- أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، الكشاف عن حقائق وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، مطبعة مصطفى البابي- مصر، الطبعة الأخيرة،1392هـ - 1972م.

3- أبو يعقوب المغربي، مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 1427هـ.

4- أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق، عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1420هـ - 2000م.

5- بدوي طَبانة، معجم البلاغة العربيّة، دار المنارة للنشر والتوزيع - جدة، ط3، 1408هـ - 1988م.

6- بسيوني عبد الفتاح فيود، علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، مؤسسة المختار للنشر-القاهرة، 2015م.

7- بهاء الدين أبي حامد أحمد بن علي عبد الكافي السّبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق، خليل إبراهيم خليل، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان،ط1، 1422هـ- 2001م.

8- جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، عقود الجمان في علم المعاني والبيان، مطبعة مصطفى الحلبي - مصر،1348هـ.

9- ربيعة الكعبي، التركيب الاستثنائي في القرآن الكريم، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ط1، 1993م.
10- صبّاح عُبيد دراز.
11- ديوان امرئ القيس، الكتب العلمية، بيروت، ط2004/5م.
12- ديوان أبي تمام بشرح التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف، ط 59/1/5.
13- ديوان النابغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر.
14- ديوان دريد بن الصمة، مطبوعات نادي الطائف الأدبي، 1429هـ.
أ/ السمات البلاغية في بيان النبوة، مكتبة وهبة – القاهرة، 1435هـ – 2014م.
ب/ أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، مكتبة وهبة – القاهرة،ط1، 1436هـ – 2015م.
15- فاضل صالح السامّرائي، معاني النحو، دار الفكر للطباعة والنشر، ط1، 2000م.
16- محمد إبراهيم شادي، علوم البلاغة، دار اليقين – مصر، ط1، 1422هـ – 2011م.
17- محمد أبو موسى، دلا لات التركيب دراسة بلاغيّة، مكتبة وهبة – القاهرة، ط4، 1429هـ – 2008م.
18- محمد توفيق محمد سعد، دلالات الألفاظ على المعاني عند الأصوليين، مكتبة وهبة، القاهرة،ط1، 1430هـ – 2009م.
19- مشرف بن أحمد الزهراني، أثر الدلالات اللغوية في التفسير عند الطاهر بن عاشور، مؤسسة الريان، بيروت – لبنان، ط1، 1430هـ – 2009م.
20- منصور علي ناصف، التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول – صلى الله عليه وسلم- دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط3، 1381هـ – 1961م.